لجنة التأليف والترجمة والنشر

البصائر والذخائر

لأبي حيان التوحيدي

حققه وعلّق عليه

أحمد أمين — السيد أحمد صقر

الطبعة الأولى

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Ansiklopedisi
Kütüphanesi
Kayıt 3165
Tasnif No. : 892.7 HAY.B

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٧٣ هـ — ١٩٥٣ م

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

عزّ عليّ أن أرى أبا حيان التوحيدى فى حياته بائساً فقيراً ، يكاد يكون منبوذاً ، يقتات من الجوع حشائش الأرض ، ويرتاد مواضع الغيث فتجدب .

وربما كان له من الصفات ما حمل الناس على معاملته هذه المعاملة القاسية ، فتدل شكواه وما وصفه من حالته فى كتبه على أنه كان يحقد على الأغنياء غمام وفقره ، مع علمه وجهلهم ، وفضله وضعتهم .

ويظهر أنه لم يكتم ذلك فى نفسه ، بل أطلق لسانه فيهم ، وطالما شكا من أن الناس ليسوا موضع ثقة . وكانت فى إحدى لمحاته لمحة تدل على أن حمل السر ثقيل ، والاحتفاظ به أثقل .

ثم كان على ما يظهر قذراً يشمئز منه السادة الأرستقراطيون ، حتى شكا مرة من أنه إذا صلّى لم يرض أن يصلى بجانبه إلا بقال أو زيات أو نحو ذلك من أهل الحرف الوضيعة .

عزّ عليّ كل ذلك فاعتزمت أن أحيى اسمه فى مماته ، بعد أن مات فى حياته ، وأنشر ما استطعت كتبه بين الناس : إعلاناً بفضله ، وإعلاماً بسعة اطلاعه ، وحسن تأليفه ؛ فنشرت أول ما نشرت له كتاب « الإمتاع والمؤانسة » وقد استقبله الناس ، ولله الحمد ، استقبالا حسناً .

وبحثت فى مقدمة الكتاب عمن هو الوزير « ابن سعدان » الذى ألف له هذا الكتاب .

وثنيت بكتابه « الهوامل والشوامل » الذى سأل فيه مسكويه أسئلة اجتماعية ولغوية وفلسفية ، أسئلة كثيرة أجاب عنها مسكويه ؛ فاستقبل أيضاً استقبالا حسناً

ثم ثلثت بهذا الكتاب ، وهو « البصائر والذخائر » فرأيته ينحو فيه نحواً غير هذين .

لقد كان فى هذين الكتابين مؤلفاً ، وهو فى هذا الكتاب جامع ، على نمط ما كان متعارفاً من كتاب « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، و « البيان والتبيين » للجاحظ ، و « العقد الفريد » لابن عبد ربه .

غير أنه يمتاز على هذين الكتابين بشيئين :

الأول : أنه يذكر لنا نتفاً لا عهد لنا بها ، والثانى : أنه يحكى لنا أخباراً من تجاربه ونظراته الخاصة . فلهذا كان هذا الكتاب يضىء لنا أشياء كثيرة من القرن الرابع الهجرى ، كما أضاء لنا كتاباه اللذان نشرناهما من قبل .

ولكن يؤخذ عليه أننا من حين لآخر نرى فيه فحشاً لايتفق مع الجلال والوقار .

وطريقته فى ذلك : أن يحكى لنا درساً فى اللغة مثلا ، وهو فى الغالب يسلسل الكلمات ، فيشرح الكلمة ، ويفسرها بكلمة ، ثم يفسر الكلمة الثانية بمعنى آخر . وهكذا ، حتى لتكاد تكون الكلمة شجرة متفرعة الفروع . ويتبع ذلك بدرس آخر فى رواية أشعار أو جمل أدبية ، ثم يتبع ذلك بذكر نظرية فلسفية ، أو حكم عميقة ، فإذا شعر بملل القارئ سلاه بحكايات فاحشة ، أو أبيات ماجنة ، يقصها بأفحش لفظ ، وأمجن عبارة .

ونحن نستفظعها اليوم ، لأن أسلوبنا فى الحياة وفى التأليف : الإيماء البعيد لا القول الصريح ، والهمس فى السر ، لا القول فى الجهر .

وربما كان عذره فى ذلك : أن الأدب العربى — من عهده فى الجاهلية — أدب مكشوف ، فنقرأ فى ثنايا الشعر أبياتاً صريحة من غير كناية ، وحتى الخلفاء أنفسهم لم يكن جلساؤهم يتحرجون من إلقاء الكلام على عواهنه ، وعدم التحرج من المجون بأبشع لفظ — نقرأ ذلك فى مجالس معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، وهشام ، والوليد بن يزيد ، وهارون الرشيد ، وغيرهم . فنحن إذا قلنا : إن الحضارة العربية كان من طابعها القول المكشوف من غير مواربة ؛ لم نبعد عن الصواب .

على أنه لكل حضارة عيوبها ، فالمدنية الحديثة تحرجت فى الغالب من قول الفحش فى أدبها ، ولكن خلف هذا الستار المؤدب صور عارية ، وملاه فاحشة ، وليال حمراء صارخة ، وليس أحدهما شراً من الآخر .

وسبب آخر ، وهو : أن أبا حيان يظهر أنه كان مكبوت الغريزة الجنسية ، وذلك بحكم فقره وتقشفه الجبرى ! فلم نسمع مثلا فى تاريخ حياته : أنه تزوج أو رزق أولاداً ؛ ولو كان لتحدث عنهم كثيراً ؛ لأن سره دائماً مكشوف . ثم كان فقره الفظيع يحول بينه و بين التسرى ، كما كان حال الأغنياء فى زمنه .

وسبب ثالث ، وهو : أن الناس فى زمنه أفرطوا فى المجون ، وطربوا منه ، وتفتحت نفوسهم له ، واستَقْبَلُوا استقبالاً رائعاً أمْثَال « ابن حجاج » و « ابن سكرة » وهاما هما : فى قول الفحش فى صراحة من غير إيماء .

لهذا كله رأينا « أبا حيان التوحيدى » ينحو هذا المنحى ، وربما كان يظن أن وجود هذه الناحية فى كتبه تسبب لها الرواج ، وتجعل الناس يقبلون عليها ، وربما ناله من ذلك خير مادى . ولكنه يظهر أنه لم ينجح فى ذلك أيضاً .

وقد صادفتنى هذه الصعوبة مراراً حين كنت أدرس الأدب العربى فى « كلية الآداب » لطلبة بعضُهم من البنات ، ورأيت أن لا مندوحة من قراءة النصوص

عليهن ، حتى يتذوقن الأدب العربى على حقيقته . وعالجت ذلك بمظهر الصَّرامة ، حتى لا أستثير ضحكهن .

وحين نشرت كتاب « المختار من شعر بشار للتجيبى » . فقد اعتاد المؤلف أن يروى بيت بشار ، ويتبعه بشعر كثير من القائلين فى هذا المعنى ، فلما رأى لبشار بيتاً ماجناً أتبعه بمجون كثير يقع فى نحو ثلاثين صفحة . ولكن كان التغلب على هذه المشكلة سهلا ؛ لأن أشعار المجون كلها فى موضع واحد ، فاستطعت أن أحذف المجون كله فى بعض النسخ لعامة القراء ، وأثبته للخاصة . ولكن كانت دهشتى عظيمة : إذ أقبل الناس عامة وخاصة على الطبعة الكاملة ، يلحون فى طلبها ، حتى العجائز الذين فات دورهم فى الغرائز الجنسية !

ولم أستطع مثل هذا العمل فى « البصائر والذخائر » ؛ لأن المجون منثور فى كل موضع ، فإذا حذفته أتلفت الكتاب ، وغيرت الصورة التى يريدها أبو حيان .

* * *

وأخيراً فكتاب « البصائر والذخائر » : ملأ الأسماع ، واعتزم كثير من الأدباء أن ينشروه ، فلما بدأو اعترضتهم صعوبة الكتاب ، وعدم توافر نسخ منه ، وغموض الخط الذى كتبت به النسخة الوحيدة المعروفة المحفوظ أصلها بمكتبة « الفاتح » ، فأحجموا عنه . فتحملنا نحن التبعة فى شجاعة وإقدام ، وصادفتنا حقاً جمل غامضة ، حاولنا أن نفك غموضها : فنجحنا أحيانا ، وفشلنا أحيانا ، ووضعنا بجانب ما فشلنا فيه علامة استفهام ، لعل قرّاء فى العربية يوفقون إلى ما لم نوفق إليه ، وحينئذ يكون لهم الشكر لو هدونا إلى الصواب .

وقد اعتاد الناقدون مع الأسف أن يؤاخذوا الناشر بما عجز عنه ، ولا يمدحوه بما فك من ألغاز . وهو حكم خاطئ ، ووزن بميزان غير عادل ، وإنما الميزان العادل

أن يوازن بين ما حل وما لم يحل ، وما صحح وما أخطأ ، والعبرة بباقى الطرح .

* * *

وقد قال ياقوت فى « معجم الأدباء » : إن كتاب « البصائر والذخائر » يقع فى عشرة أجزاء ، ولكن نسخة دار الكتب ، وجامعة القاهرة فى خمسة أجزاء . فظننا أول الأمر أن النسخ التى رآها ياقوت كانت مجزأة إلى عشرة أجزاء ، وهذه النسخ مجزأة إلى خمسة ، فالمسألة مسألة تجزئة لا مسألة نقص . ولكن بعد أن بذلنا الجهد فى استحضار النسخ التى فى العالم : فى الهند وفى استنبول وفى غيرهما — وجدنا أن كلام ياقوت صحيح ، والتجزئة واحدة ، والكتاب عشرة أجزاء لا خمسة .

وقد وفقنا ، ولله الحمد ، إلى جمع الأجزاء العشرة كلها ما عدا جزءاً واحداً هو السادس . ونرجو أن نعثر عليه قريباً فى مخبأ من المخابئ . وكانت النسخ التى اعتمدنا عليها فى نشر هذا الجزء ، هى نسخة « مكتبة الفاتح باستنبول » المصورة بدار الكتب المصرية ، رقم ١٩٠٤ — أدب ، وجامعة القاهرة رقم ٢٢٩٦ أدب وهى بخط الأشرف ابن القاضى الفاضل ، نسخها فى سنة ٦٢٨ هـ وأكثر كلماتها متشابكة وغير معجمة : مما جعلها عسرة القراءة ، مبهمة على أكثر الأنظار . وقد رمزنا إليها بحرف : « ح » .

والثانية نسخة « مكتبة كمبردج » وهى بخط يوسف بن محمد الشهير بابن الوكيل ، نسخها فى شوال سنة ١١١٧ هـ . وأكبر الظن أنها منسوخة عن النسخة الأولى ، وهى كثيرة التصحيف والتحريف ، وكان ناسخها الأمى — غفر الله له — إذا عسر عليه قراءة نص : تركه ولم يثبته ، ولم يشر إلى ذلك بأية إشارة . وقد رمزنا إليها بحرف : « ك » .

أما الأجزاء الأخرى فلها تاريخ نشرحه فى حينه إن شاء الله .

ومن حسن الحظ أن « أبا حيان » جعل لكل جزء مقدمة خاصة به وخاتمة ، حتى كان كل جزء كأنه كتاب مستقل . فهو إذاً كتاب من كتب المختارات ،

غاية الأمر أن له ميزة خاصة . لقد أدار « المبرد » مثلا ، اختياره على نصوص أدبية يمكن أن يبنى عليها كلام فى النحو ، وبنى « ابن عبد ربه » كتابه : « العقد » على نقل ما للمشرق للمغرب . أما « أبو حيان » فكان اختياره شاملا متنوعا : أحياناً فى الأدب شعراً ونثراً ، وأحياناً فى الفلسفة ، وأحياناً فى اللغة ، وأحياناً فى العلم والعلماء ، وأحياناً فى الصوفية والمتصوفين . فهو إلى الأدب بمعناه الواسع — وهو الأخذ من كل شىء بطرف — أقرب وأكمل .

ثم لم يقصر « أبو حيان » كلامه كله على المختار من أقوال من سبق ، بل أضاف إلى ذلك تعليقات من عنده ، أو حكايات من مشاهداته بأسلوبه .

وأسلوب أبى حيان : رائع جزل ، يلتزم المزاوجة ولا يلتزم السجع ، ولا يتفخفخ فى الأسلوب على حساب المعنى ، ولا يتدفق فى المعنى وينسى الأسلوب ؛ فهو للناشئة خير معلم ، وللمؤرخين خير راوٍ . ولئن قالوا عنه : إنه هو الجاحظ الثانى ؛ ففى رأيى : أن الجاحظ — وإن كان أكثر تشعباً ، وأكثر انطلاقا — فأبو حيان أجزل لفظا ، وأوسع علماً ؛ لأن الجاحظ كان مسجل القرن الثانى ، وفى القرن الثانى بدأت نشأة العلوم . وأبو حيان مسجل القرن الرابع : وقد نضجت العلوم . وشتان بين علم ناشئ ، وعلم ناضج .

قد يمتاز « الجاحظ » : بحسن التصوير ، وحسن العرض ، والقدرة على خلق شىء من لا شىء . أما « أبو حيان » : فأوسع أفقا ، وأغزر مادة . إن كان « الجاحظ » معتزليا فهو معتزلى فقط ، أما « أبو حيان » : فقد كان نحويا ، وكان فيلسوفا ، وكان أديبا ، وكان متصوفا .

وفى نظرى : أننا إذا اخترنا نموذجا للناشئين ، من الأدباء القدامى ، اخترنا « أبا حيان » لكل الميزات التى ذكرنا . فالجاحظ يغنى غناء طريفا جديداً ، و « أبو حيان » يغنى غناء كلاسكيا حسب أصول الفن .

بدأ « الجاحظ » : والعلمُ فى مستهله ، فأعجب الناس وأطربهم . وجاء

« أبو حيان » : والعلم على أتمه ، فروى لهم ما وصل إليه . وليس من شك فى أن مجهود العالم الإسلامى فى قرنين ونصف فى كل فروع العلم ، كان مجهودا هائلا ، نهل منه « أبو حيان » ، ولم ينهل منه « الجاحظ » . فأبو حيان فى الحقيقة يمثل العلم العربى : إلى أين وصل ؟ و « الجاحظ » يمثله : كيف بدأ ؟

ولكن حظ « الجاحظ » كان أحسن من حظ « أبى حيان » : فكُبِّرَ ومُجِّد ؛ و « أبو حيان » : نُسِىَ وأُهمل . فما أحرانا ألا نكون مع الزمان عليه ، أو أن لا نقلد كثيراً من الناس فى إهماله .

وحبذا لو رزق الله العالم الإسلامى بباحثين مقتدرين ، استطاعوا أن يغربلوا كتب « أبى حيان » : من « إمتاع ومؤانسة » و « هوامل وشوامل » و « بصائر وذخائر » و « مقابسات » وكتب أخرى ورسائل ؛ ثم يعرضوها على الناس : بلفظ جديد ، وأسلوب جديد . إذاً : لرأوا آراء ونظريات يعجب القارئ كيف أتى بهذا كله منذ ألف عام تقريبا . وإذاً — أيضاً — : لصورت الثقافة العربية بصورة جميلة زاهية ، تقلل من شأن ما أتى بعد من حضارت .

وفرق آخر ، وهو : أن « الجاحظ » لما حسن حظه ضَحِكَ ، فاشتهر بالفكاهة الحلوة ، والنادرة اللطيفة .

و « أبو حيان » لما ساء حظه بكى ، والناس عادة يضحكون مع الضاحك ، ويهربون من الباكى . فقد أكثر أبو حيان من الشكوى حتى ملّ منه « مسكويه » فى كتاب « الهوامل والشوامل » ، وقرعه عليه .

إن الزمان يذهب بغنى الغنىّ وبجاه الوجيه ، ولا يبقى إلا آثار الأديب والعالم ، فكم مدح الشعراء أغنياء ، ثم ذهب الأغنياء ، وبقى الشعر . ومات « أبو ابن حزم » وكان وزيرا خطيرا ، ومات « ابن حزم » الوزير أيضاً ، وبقى « ابن حزم » العالم الأديب . وللدنيا قيم بعد الوفاة غير قيمها فى الحياة . فكم مات اسم أصحاب قصور ضخمة ، وأسماء فخمة ، لم يذكرها الزمن ، وبقى اسم كأبى حيان . وكان الزمان